مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 14 ع 01.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

اللغة وديناميكية التطور المعرفي: المنطلق والرؤية

Language and the Dynamics of Cognitive Development

Starting Point and Vision

سعيدة لوناس* Saida lounes lounes.saida@univ-medea.dz	لسانيات الخطاب	جامعة الدكتور يحي فارس / المدية مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية
عواطف قاسمي الحسني Awatif kacimi el hassani kacimiawatif@yahoo.fr	لسانيات رياضية وحاسوبية	جامعة الدكتور يحي فارس / المدية
ORCID :		DOI : 10.46315/1714-014-001-029

الإرسال: 2024/07/07 **القبول**: 2025/01/06 **النشر**: 2025/01/16

**

ملخص: تأسست نظريات لسانية حديثة عديدة وجهت اهتمامها نحو اللغة كلٌّ من زاوية محددة. وكانت الانطلاقة من الدراسات المقارنة التاريخية وصولا إلى دراسة اللغة من منظور معرفي يتناولها كمَلَكَةٍ ذهنيّة إدراكيّة، فكان أن تجلى هذا التحول الجوهري عبر محطات فاصلة في حركية غيرت وجهة منظور الدرس اللساني للغة من المقاربة الوصفية النسقية نحو المقاربة الإدراكية المعرفية.
فماهي منطلقات تحوّل الدرس اللساني المعرفي؟ وكيف تتجلى معالم الرؤية نحو التوجّه هذا التوجه المعرفي للغة؟
وللإجابة عن هذه الإشكالية جاءت ورقتنا البحثية، والتي اعتمدنا فيها على المنهج الوصفي التحليلي لاستجلاء أهمّ المحطات التي تمّ من خلالها تحوّل الدرس اللساني من توجّه إلى آخر، عبر ديناميكية مؤسّسةٍ أدّت بالدراسات المعاصرة إلى الانطلاق بالدّرس اللغوي نحو آفاق بعيدة؛ ضمن مايسمى باللسانيات المعرفية. التي حققت نقلة نوعية في حقل الأبحاث اللسانية والعلوم المعرفية؛ حيث شهدت حركية في السنوات الأخيرة، مما ساهم في إخراج اللغة من حِلق الضيق والانطواء، إلى البحث في كوامن اللغة وعلاقتها بالذهن والفكر.

كلمات مفتاحية: اللغة؛ التطور المعرفي؛ البنوية؛ التوليدية؛ اللسانيات المعرفية.

Abstract : Several recent linguistic theories have been established that have focused their attention on language from a specific point of view. The starting point from historical comparative studies to a cognitive perspective on language was a cognitive intellectual entity. This fundamental shift was reflected through a watershed in a move that changed the linguistic perspective of language from a systematic descriptive approach to cognitive approach. So, what are the starting points for a cognitive language lesson? How do visions manifest themselves in the direction of this cognitive orientation of language?

In response to this problem, our research paper, in which we relied on the analytical descriptive approach to explore the most important stations through which the language lesson was transformed from one orientation to another, was developed through an institutional dynamic that led contemporary studies to start with linguistic studies towards distant horizons, including so-called cognitive linguistics. It has made a qualitative shift in the field of linguistic research and cognitive sciences; it has seen a dynamic in recent years, which has contributed to the removal of language from the narrow circle and involvedness, to the research of language violin and its relationship to mind and thought.

Keywords: language; cognitive development; structuralism; generative; cognitive linguistics.

* - سعيدة لوناس: lounes.saida@univ-medea.dz

***-مقدمة**

شهدت الدراسات اللسانية تحولات كبرى عبر التاريخ؛ فقد كانت مسيرتها حافلة بمحطات فاصلة ومنعرجات حاسمة تنمّ على أهمية اللغة كمكوّن بشري يرتبط بالوجود الإنساني ويتأثر بالواقع الفكري والمادي ويؤثر فيه؛ فكان أن تأسست نظريات لسانية عديدة وجهت اهتمامها نحو اللغة كلّ من زاوية محددة، وكانت الانطلاقة من الدراسات المقارنة التاريخية وصولا إلى دراسة اللغة من منظور معرفي يتناولها كملَكَة ذهنية إدراكية؛ إذ لم تعد اللغة مجرد نظام من العلامات يفرض على الباحث نوعا من العزلة والانغلاق، ولم تعد وظيفة اللغة تنحصر في التعبير عن الحاجات والمقاصد، بل امتد التفكير في البحث اللغوي إلى طرح إشكالات تتعلق بعلاقة اللغة بالفكر والواقع، وإيديولوجية الأمة التي تتكلّمها، ونمط تفكيرها وذهنيّتها وكيفية إدراكها للأمور. فماهي منطلقات تحوّل الدرس اللساني المعرفي؟ وكيف تتجلى معالم الرؤية نحو التوجّه المعرفي للغة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية؛ جاء هذا البحث الذي يهدف إلى الوقوف بالوصف والتحليل على أهم المحطات التي تمّ من خلالها تحوّل الدرس اللساني من توجّه إلى آخر؛ عبر ديناميكية مؤسّسة أدت بالدراسات المعاصرة إلى الانطلاق بالدرس اللغوي بعيدا ضمن مايسمى باللسانيات المعرفية والبحث في علاقة اللغة بالذهن، والوصول إلى أن اللسانيات مرت بمنعرجات حاسمة انطلاقا من المقارنة والوصف والتفسير تدريجيا قبل الانشغال بمعالجة اللغة وفق مقدرات الذهن والإدراك.

- المنهج وطرق معالجة الموضوع:

وقد توسلنا في ورقتنا البحثية بالمنهج الوصفي التحليلي لملاءمته لطبيعة الموضوع، من خلال محاولتنا الإلمام بمختلف المحطات والتوجهات اللسانية؛ التي شملت الدرس اللغوي منذ بداياته الأولى مع الدراسات التاريخية المقارنة وصولا إلى اللسانيات المعرفية، في محاولة منا لتحليلها وإبراز مواطن التعالق بينها، رغم اختلاف المنهج وطريقة التناول، وبيان كيف تطور الدرس اللساني حتى بلغ ما بلغ في مصاف العلوم الإنسانية والعلوم المعرفية على حد سواء.

01- الدّرس اللساني من هيمنة الفكر المقارن إلى المقاربة البنيوية

ظلّت الدراسات اللسانية الحديثة ولعقود طويلة يتجاذبها التيار المقارن؛ باعتباره أولى اللّبنات التي أسّست للبحث اللغوي، فكان أن وجّه اللغويّ اهتمامه نحو البحث في اللّهجات وتطورها إلى لغات فصيحة، مولّيا بذلك شطره نحو الماضي التليد، ثم التنقيب عن الرّوابط والصّلات التي تتعالق بها هذه اللغات، أو تتقاطع في مستوياتها الصوتي، والصرفي منها والمعجمي والتركيبي بالعمل الحثيث على لمّ شملها تحت لواء واحد، و"تجميعها في فصائل أو أسر تنحدر من نفس اللغة الأم" (المتوكل، 2013،

صفحة 17)، وتتبع مساراتها عبر التاريخ ورصد منحنيات تطور اللغات عبر العصور؛ بإبراز التغيرات الطارئة على لغة ما والعوامل المؤثرة في ذلك.

فلقد عكف الفلاسفة واللغويون الهنود قديما على دراسة اللغة السنسكريتية؛ لاعتقادهم ككلّ الأمم أن لغة كلّ أمة إنما هي رمز لقوّتها، وأبرز مقوّمات نهضتها، واستمرارها هو امتداد لحضارتها. ثم إنّ هذا الاهتمام باللغة السنسكريتية يُعزى لدوافع دينية؛ حيث كان للعقيدة الدينية الهندوسية دور بالغ الأهمية في التأسيس للدرس اللساني (الندوي، 2014، صفحة 83) الذي ما فتئ تتبدى معالمه بفضل سعي اللسانيين؛ بانبثاق أفكار جديدة، وتوجّهات عديدة في حقل اللغة أسفرت عن الدراسة الوصفية. حيث" تحوّل اتجاه اللسانيات في القرن العشرين من الاهتمام بدراسة مظاهر تغيّر اللغة عبر الزمن إلى الاهتمام بإنجاز وصف لها؛ فبدلا من البحث في الكيفية التي تغيّرت بها وحدات لغوية معيّنة، في عدد من اللغات المختلفة جعل اللسانيون يركّزون على إنجاز وصف للغات البشرية كلّ على حدة، في مرحلة زمنية بعينها" (اتشسن، 2016، صفحة 73) بميلاد البنيوية وفكر دي سوسير الذي أحدث نقلة نوعيّة وتحوّلا في مسار البحث اللغوي.

فقد شكلت ثنائيات دي سوسير مسارات جديدة "أحدثت صدمة منهجيّة ومعرفية خالفت ما هو سائد، ولكي يستقري أبعاد الظاهرة لجأ منهجيا إلى اشتقاق ثنائيات شكلت المرتكز الأساس لمبحثه اللغوي" (الأسدي، 2018، صفحة 91)؛ حدّد من خلالها طبيعة اللغة ونظامها وخصائصها ومنهج دراساتها، وصارت ابتكارا فتح للمهتمين بالشأن اللغوي فيما بعد آفاقا مترامية الأطراف للبحث والتجديد والتطوير في اللسانيات بكل أبعادها، لتصبح البنيوية أصلا تفرعت عنه بنويات عديدة كحلقة براغ وحلقة كوبنهاغن، ومدراس لسانية لاحقة؛ سواء بتفنيد الفكر السوسيري وانتقاده وقيام نظريات لسانية على أنقاضه، أو بتبنّيه والاشتغال عليه. وهذا ما يؤكده مختار زواوي بقوله: "ولئن اختلفت البنيويات باختلاف مؤسّسيها، وتنوّعت بتنوّع مجالات تطبيقها، فإنّ القاسم المشترك بينها يبقى اللّجوء الدّائم إلى دو سوسير" (زواوي، 2017، صفحة 79) الذي تجاوز البحث في اللّغة على أنها مجرّد وحدات دالة لها مدلولات إلى كونها نظاما من العلامات المتراصّة، ونسق تتحقق من خلاله قيمة هذه العلامات.

فمن تعاقبية الدراسة اللغوية إلى آنيتها، ومن التفريق بين اللسان والكلام، إلى اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، كان التوجه نحو مقاربات جديدة في الاشتغال اللغوي، يعد بمثابة الأرضية التي مهدت لميلاد الدرس اللساني بحلة علمية مبتكرة،

ولنقف قليلا عند ثنائية الدال والمدلول، حيث تصور دي سوسير أن الرمز اللغوي ذا مكونين دال ومدلول، فأما الدال فهو الجانب المادي الأكوستيكي للكلمة أو الرمز، وأما المدلول فهو الصورة الذهنية التي تحيل عليه، لذلك فالعلاقة بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية لا تلازمية، إذ قد تتغير الدالات لتدل على مدلول واحد، فهو يرى بأن الدال والمدلول يشكلان وجهان لنفس الورقة. وعن ثنائية اللغة مقابل اللسان، وعن علاقة الدال بالمدلول يوضح دي سوسير بقوله:" حتى نتمكن

من فهم مكانة اللسان مقابل اللغة يجب أن نضع أنفسنا أمام الكلام الذي يعد فعلًا فردياً يتطلب شخصين على الأقل...ويعد منطلق هذه الحلقة الدماغ من جهة؛ حيث تتم عمليات الإدراك وهو ما نسميه مجال المفاهيم التي ترتبط بالدوال اللسانية عبر الصور السمعية ... ونفترض أيضًا أن مفهوماً ما يمكن أن يثير في الدماغ صورة سمعية موافقة له. إنه مسارٌ فيزيائي تليه مسارات فيزيولوجية متعلقة بالأوامر التي يعطيها الدماغ لجهاز النطق" (حفضة، 2022).

إن المتفحص لهذا القول يدرك مدى عمق التفكير اللساني الذي بلغه دي سوسير، إذ يبين يوضح تلك الفروق الدقيقة بين اللغة واللسان والكلام، معتبرا أن الكلام ممارسة أو أداء فردي يرتهن إلى وجود متكلم ومخاطَب، هما في الأصل يشكلان قطبين أساسيين في عملية التواصل اللغوي، ثم يبين المرجعية الذهنية للغة كبنية أو منظومة إنسانية يشترك فيها جميع البشر، وأن الكلام هو الشكل المادي للغة، والذي تتم معالجته آليا داخل الدماغ، فيتم من خلاله فهم العالم من حولنا

ولم يكتف دي سوسير بالاشتغال على النظام اللغوي كنسق تركيبي، وأن اللغة مجرد علامات هي في الأصل مكونات للدليل اللغوي بل تطرق إلى أن قيمة تلك العلامات لا يمكن أن تتحدد خارج النظام اللغوي، "فلا يمكن تفعيل إحدى الأجهزة اللغوية في منأى عن بقية النظم اللغوية الداخلية الأخرى، فاللغة شبكة من العلاقات كل منظومة منها مشروطة بجملة من القواعد ...ذلك أن قيمة الوحدات اللغوية لا تبرز إلا بالنظر في علاقتها ببقية الوحدات" مشبها النظام اللغوي بلعبة الشطرنج، إذ ليست القيمة في المادة التي صنعت منها اللعبة وبيادقها، وإنما في قواعد اللعبة نفسها.

وفي هذا الشأن يقول دي سوسير:" إن فكرة القيمة (...) تبيّن لنا أنه لَوهم كبير أن ننظر إلى لفظة ما باعتبارها مجرّد اتّحاد بين صوت وتصوّر، إنّ تحديدها بهذا الشكل يعني نفيها من النظام الذي هي جزء منه" (المنصف واللحياني، 2014، صفحة 38).ولعلّ هذا الطرح لفكرة النظام والقيمة وما يسبقه من تشريح للمكوّن اللّساني يحيلنا إلى أنّ الفكر السّوسيري قائم على مبدأ البناء، والتدرج والتقدم في التعرض لدراسة اللغة وإن كان قد اعتمد سياسة العزلة اللغوية-إن صحّ التعبير- بالانغلاق على اللّغة ودراستها منها وإليها، الأمر الذي جعل الفكر السّوسيري عرضة للنقد ذلك أنّ" الأطروحة المركزية للبنيوية هي توكيد أسبقية العلاقة على الكينونة وأولويّة الكل على الأجزاء ؛ فالعنصر لا معنى له ولا قوام إلا بعقدة العلاقات المكونة له" (قارودي، 1997، صفحة 13).

فتعصّب دي سوير للنظام الداخلي للغة على حساب ظروف إنتاجها، ومحيطها الخارجي واستبعاد جانبها البراغماتي من أبحاثه اللغوية كان مطية لسوء الفهم بأن بنيويته ألغت الحيّز الخارجي للغة. حتى أن روجيه قارودي يرى بأن: " مفهوم البنية في أيامنا هذه يحمل فلسفة تمثل في طبعتها الدوغماتية نقطة الوصول لفلسفة موت الإنسان، للفلسفة التي بلا ذات" (قارودي، 1979، صفحة 13)، هذا الفهم الذي قد يتعارض مع أفكار دي سوسير الذي أراد بأبحاثه أن يضفي الطابع العلمي التجريبي على اللغة باعتبارها علما إنسانيا، وفي هذا يقول روبنسون (2000/1912) وهو أحد أقطاب البنيوية: "من الممكن أن نجعل مكانة اللسانيات بين العلوم أكثر وضوحا، إنها علم تجريبي" (غلفان وآخرون، 2010، صفحة 17)

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

ولعل هذا السعي وراء محاولة إثبات أنّ اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة مبنية على أسس منطقية جعل دي سوسير ينغلق على النظام الدّاخلي للغة؛ مستبعدا من منهجه لدراستها أيّ إحالة خارج إطار النسق والبنية. ليتبيّن فيما بعد أن استبعاده ذلك لا يفسّر بحال من الأحوال إلغاءه لملابسات إنتاجها. وقد كان " لنزعته العلمية دور في انتماء اللسانيات فعلا إلى منظومة المعارف التي تتشارك في كل مميزات العلم الدقيق. وقد قيل:(إن المفاهيم المؤسسة لنظرة دي سوسير تشكل اختراقا معرفيّا بفتح قارّة اللغة على العلم)" (سلمان، 2021، صفحة 46)، من خلال منهجه ومنعرجا حاسما في مسار اللسانيات يؤسّس لتوجهات جديدة ونظريات عديدة في مجال البحث الألسني.

وعلى رأي جوناثان كيلر فإن سوسير قد تناول اللغة بشكل ركز فيه على "المشكلات التي تعد في الصميم بالنسبة إلى طرق التفكير الجديدة في الكائن البشري، وعلى وجه الخصوص في العلاقة الحميمية بين اللغة والعقل ... فإذا ما تحدثنا عن الميل البشري إلى تنظيم الأشياء في أنساق يمكن عن طريقها أداء المعنى؛ فإننا نضع أنفسنا عندئذ على طراز من التفكير السوسيري بمعنى الكلمة." (كيلر، 2000، صفحة 60) ينزع إلى الفكر، ويؤسس بشكل أو بآخر للدرس اللساني وفق التصور المعاصر.

02 - التوليدية التحويلية والمرجعية الرمزية

استطاع دي سوسير أن يسير بالدرس اللغوي أشواطا لا يستهان بها، من خلال ما اشتغل عليه أرباب المدارس اللسانية الذين تبنوا فكره البنيوي من بعده، وأحدثوا فيه بإخراج اللغة إلى فضاءات أرحب تلامس الشقّ الوظيفي للغة ممثلة في مستويات اللغة والإطار التواصلي المجتمعي.

غير أنّ المعرفة وتحدّياتها تقتضي التجدد بما يساير منظومة العصر، فمع بداية القرن العشرين أحدث تشومسكي ثورة معرفيّة في مجال اللسانيات بنظريته التوليدية التحويلية التي شكلت منعطفا جديدا غيّر مسار الدرس الألسني؛ من وصف اللغة بأنها سلوك خاضع لثنائية المثير والاستجابة والتجريب إلى كونها نظاما ذهنيا عقليا" (القادر، 2022، صفحة 39)"، وقد جاء هذا التحوّل المنهجي عبر محطات من التّمحيص والتعديل، والمراجعة المستمرة خصّ بها تشومسكي أفكاره، حتى غدت من أهم الروافد التي ينهل منها الدّرس اللساني الحديث وحتى المعاصر.

فمن نقْض تشومسكي لمبادئ البنيوية لاسيّما الأمريكية منها توهّج فكره، وأثْرَت مباحثه المتواصلة الدرس اللساني. وقد سار على نهج دي سوسير في بدايات اشتغاله باللسانيات بتبنّيه لمبدأ الثنائيات حيث فرّق بين الملكة والتأدية، وغاص في صميم النظام اللغوي إلى ما أسماه بالبنية السطحية والبنية العميقة، مميزا بذلك في دراسته للغة انطلاقا من الجملة بين الشكل المادي للغة في شقه التركيبي؛ والذي يتمثل في الجملة التي ينتجها المتكلم وينطق بها، وبين ما يستبطنه هذا الشكل الخارجي ضمن عناصر تركيبية وعلاقات مكونة للجملة من معان جديدة، مما يعني أن البنية السطحية للجملة الواحدة قد تتضمن العديد من البنى العميقة.

ويمثل محي الدين محسب لفكرة البنية السطحية والبنية العميقة بجملة: "**الله المنظور غير العالم المنظور**" موضحا أن بنيتها الظاهرة أو السطحية هي الشكل الذي جاءت عليه الجملة كما هي الآن، وهي في الوقت نفسه تتضمن ثلاث جمل أخرى يدرجها بالشكل الآتي"

1- الله خلق العالم؛ (وهي الجملة النواة، أو الجملة الأساس).
2- الله غير منظور.
3- العالم منظور.

حيث أدمجت الجملتان الثانية والثالثة تم دمجهما في الجملة النواة وفق القاعدة التحويلية. (محسب، 2008)

هذا وقد كان لتشومسكي دراسات عديدة تبنتها نظريته التوليدية التحويلية، تجلت من خلال مؤلفاته ومنها كتابه (البنى التركيبية). وتجلت النظرية التوليدية التحويلية التي عرفت" في السنوات الأخيرة تطورا مذهلا سواء في شكلها العام، أو في مضمونها وكيفية تصوّرها للتحليل اللساني، نتج عنه تراكم معرفي هام جدا على مستوى النظرية مفاهيمها الأساس" (غلفان وآخرون، صفحة 2) حيث تغيرت زوايا النظر في البحث اللساني من مجرد الوقوف على شكلنة اللغة، والاعتكاف على دراسة خصائص النظام والتركيب الجملي إلى أفق التفكير في عرفنة هذه اللغة، إذ تعرّض تشومسكي في أبحاثه اللسانية المتقدمة إلى " ثنائية مخ/ عقل Brain/Mind في إشارة إلى عضوية الذهن (العقل) وذهنية المخ، فالمخ عضو فيسيولوجي فيزيائي دون شك، ووظيفته من جهة اللغة نظام رمزي كامل هو الذهن(النظام المعقد من الملكات المتفاعلة المكونة من الأعضاء الذهنية) (طعمة، 2015، صفحة 516).

إن هذا الحدّ من التفكير الذي بلغه تشومسكي يشي بأهمية البحث اللساني في إطاره المعرفي؛ ذلك أن" الاستعلام اللغوي الحديث ينشد الاتحاد مع المقاربات الأخرى للدماغ، أملا في أن تكتسب الشحطة المائلة "/" في عبارة "عقل / دماغ" يوما ما مضمونا أكثر جوهرية؛ إنّه يُعنى ليس فقط بطبيعة وارتقاء الحالات اللغوية، بل أيضا بالطرق التي تدخل بها في استعمال اللغة" (تشومسكي، 2009، صفحة 29)، وهذا بالتحديد مثار الحراك اللساني من أدنى مستوياته الفلسفية إلى مصاف الدراسات الذهنية ذات البعد الإنساني، والطابع الاجتماعي ونظم التواصل اللغوي التي تستدعي تجنيدا لوظائف العقل العليا للوصول إلى المعرفة وتفسيرها؛ وفي هذا يقول تشومسكي:" في دراسة اللغة، كما في كل بحث غير ركيك تعمي الظاهرات العقول بتعقدها وبتنوعها الظاهرين، فبصيص إدراكنا لا يمكنه أن يوضح سوى مجال ضيق، فإذا رغبنا في تخطي النشاط التصنيفي، يجب أن نختار وأن نستبعد، وأن نفكر مليا في القضايا التي تبدو ملائمة للمبادئ التفسيرية التي تتوصل إلى صياغتها" (بوقرة، 2021، صفحة 45).

إن اعتقاد تشومسكي بأهميّة البحث في اللغة لِما يستدعيه من إعمال للفكر وتقليب للظواهر اللغوية وتفسيرها جعله يقرّ بتعقد مجالاتها وتشعبها وتنوعها من جهة، وبمحدودية إدراك حقيقة اللغة رغم الجهود المبذولة من جهة أخرى. لذلك وجب حسبه إخضاع الدرس اللغوي لجهاز التصفية والتنقيح والتعديل في كل مرة مواكبة لمستجدات العصر وتطورات العلوم والمعرفة. وهذا ما تؤكده مؤلفاته،

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

التي أسفرت عن منحى تطوري لأفكاره فمن الوصف إلى التفسير إلى النحو الكلي والقواعد التوليدية التحويلية، إلى البنية الذهنية للغة واعتماد المنطق والرياضيات في تصوراته اللسانية ذات المرجعية الرمزية والمفاهيم التجريدية، وقد " بين هيلبرت أن الصياغة الرمزية ليست مجرد وسيلة ملائمة في التعبير ولا مجرد اتفاق، ومواضعة وإنما هي موضوع الفكر الرياضي ذاته، بل إنّ اللجوء إلى هذه الصياغة لم يكن إلا وليد الطابع الصوري للرّياضة. إن الصياغة الرمزية هي عبارة عن إنشاء لغة تطابق إنشاء الصور، ويمكن معاملتها لا كأداة تعبير ترد، وتحيل إلى معنى ينبغي البحث عنه، وإنما موضوع يعرض نفسه على الدارس". (شقروش، 2021، صفحة 353) وفي هذا إشارة إلى استبعاد المكوّن النحوي عن المكوّن الدلالي، والتركيز فقط على الشق الشكلي الرمزي في دراسة النحو بعيدا عن الخوض في المعاني من جهة أخرى.

فقد ارتهن فكر تشومسكي إلى منطق ديكارت، محاولا الإحاطة باللغة كقضية تتشابك مع مجالات عديدة كالرياضيات حيث وسع آفاق ما يعرف باسم اللسانيات الرياضية (Mathematique linguists)، وفتح بهذا ميدانا جديدا في الدرس اللغوي لا يهم الألسنيين فقط بل وحتى المناطقة وعلماء الرياضيات أيضا" (روقاب، 2021، صفحة 92) وعلم الأحياء الذي يجسد من خلاله اللغة والملكة اللغوية بأنها عضو كسائر الأعضاء حيث يقول:" يمكن اعتبار ملكة اللغة بشكل معقول عضو اللغة بالمعنى الذي يتحدث به العلماء عن الجهاز البصري أو جهاز المناعة أو جهاز الدوران بوصفها أعضاء في الجسم" (بسطامي، 2016، صفحة 6).

فالقول بعضوية اللغة قلب موازين البحث اللساني؛ وخرجت اللغة من حلق الضيق والانطواء على دراسة مادة اللغة وخصائصها، وتصنيف مستوياتها إلى البحث في اللغة قيد الاستعمال ولحظة الإنتاج، وكيف تتفاعل في الذهن وتتبلور لتخرج في صيغتها النهائية، ومن هذه الزاوية الذهنية العصبية جاء تشومسكي بفكرة النحو الكوني؛ رافضا للتفسير السلوكي للغة وذلك ما جعله يتساءل عن إمكانية معاملة اللغة على أنها عضو جسدي، ودراستها على أساس جسدنتها حيث يقول: " إلا أنّ أنظمة الإدراك البشرية عندما نتفحّصها بجدية تثبت أنها ليست أقل إبداعا وتعقيدا من البنى الفيزيائية التي تنتج في حياة الكائن، فلماذا يسود الاعتقاد إذًا بأننا لا يصحّ أن ندرس اكتساب بنية إدراكيّة كاللغة بطريقة مشابهة لدراستنا عضوا جسديا معقدا؟" (بنكر، 2001، صفحة 30).

يعقّب تشومسكي نفسه على سؤاله بأنه يستدعي تجنيد وظائف الفكر الواعي حتى يفهم على أصوله وبهذا" فإن تشومسكي ولغويين آخرين طوّروا نظريات عن القواعد العقلية التي تبنى عليها معرفة الناس بلغات معيّنة (...) وسرعان ما أثر عمل تشومسكي على علماء آخرين من بينهم إريك لينيبيرج، وجورج ميلر، وروجر براون وموريس هالي، وآلفين ليبرمان فشجّعهم على أن يفتحوا مجالات جديدة كاملة في دراسات اللغة" (بنكر، 2001، صفحة 30). وكانت تلك خطوة فارقة في تاريخ اللسانيات نحو توجّه جديد في دراسة اللغة ينادي بضرورة تشارك علوم معرفية عديدة لتشريح اللغة والوصول إلى دقائقها ومفاصلها من جوانب ذهنية إدراكية.

03- نحو دراسات لسانية معرفية

لازالت اللغة إلى غاية اليوم تستفز عقول اللسانيين، وتستثير أفكارهم التي بلغت في ذات الموضوع قدرا من المعرفة لا يمكن الاستهانة به، فقد شهدت الأبحاث اللغوية في الآونة الأخيرة تسارعا رهيبا شأنها في ذلك شأن التحوّلات الكبرى التي يشهدها عصر التقنية، مما يدل على أهمية هذا المكوّن البشري الذي يشكل أحد مقوّمات تكوين الفرد، إنه اللغة؛ " فقد مررنا من دراسة السلوك وآثاره إلى دراسة الآليات الداخلية للفكر وعن الطريقة التي تستعمل بها تلك الآليات في العمل والتأويل، إنها مقاربة ذهنية" (الحباشة، 2008، صفحة 68) ظهرت بوادرها مع تشومسكي ونظرية النحو التوليدي، واهتدائه إلى فكرة لاتعالق التركيب بالمعنى، فقد يكون التركيب سليما والمعنى لا يستقيم، ومنه فالدلالة عنده منفصلة عن النحو باعتباره نظاما تتركب وفقه الأقوال والجمل، ومنه فإنّ تشومسكي حاول إبراز "عدم إفادة الاعتبارات الدلالية في إطلاق حكم يتعلق بنحوية قول أو لانحويته" (الحباشة، 2008، صفحة 63)، بدليل إمكانية تشكيل جمل خاضعة للتركيب النحوي بعلاقاته الإسنادية لكنها مفرّغة من الدلالات والمعاني.

وإذا عدنا إلى النموذج التوليدي، والمقاربة المعرفية، نجد المعجم الذهني حاضرا في فكر تشومسكي؛ حيث تفطن تشومسكي إلى أهمية المعجم والدور الأساسي الذي يحتله بالموازاة مع قضية التركيب وخاصة النحو، حيث عمل على " تحديد العوامل الكامنة وراء التعبير اللامحدودة في اللغة، فكل شخص ينتج مالا نهاية له من الجمل، ويفهمها، وإن لم يسمعها من قبل في حياته؛ فهو يستبطن طريقة في التوليف بين عدد محدود من العناصر المحفوظة في الذاكرة، تلك هي الملكة اللغوية؛ والملكة قسمان محفوظان في الذهن هما: المعجم الذهني والنحو الذهني." (الزناد، 2010، صفحة ص50)

فاستبعاد تشومسكي للدلالة وفصلها عن النحو بالنظر إليه على أنه نظام شكلي ورمزي بحت جعله محل انتقاد، ومعارضة من بعض اللسانيين، ومنهم لانقاكر الذي ينكر عليه وعلى مؤيديه ذلك، ويرى أن استقلالية النحو عن الدلالة أمر مجانب للصواب إذ حسبه:" ليس وصف النحو بكونه نظاما شكليا صرفا أمرا خاطئا فحسب بل هو تشبث أعمى بالخطأ" (لانقاكر، 2018، صفحة 18) ذلك أن النحو إنما جيء به لاستقامة المعاني اللغوية وسلامتها وسلاستها تحقيقا للوظيفة التبليغية التواصلية للغة، وهذا ما حاول لانقاكر أن يبرهن عليه ليصل إلى أن النحو ذو دلالة فهو" مظهر أساسي من مظاهر الجهاز المفهومي الذي نمسك من خلاله بالعالم ونتفاعل معه." (لانقاكر، 2018، صفحة 18)

فالنحو ليس مجرد قالب شكلي تنتظم وفقه عناصر لغوية ذات طابع رمزي، فالوحدات اللغوية تمتلك دلالات في ذاتها على المستوى المعجمي، والرّمز بمقاربة لانقاكر هو" تقارن زوجي بين بنية دلالية وبنية صوتمية بوجه يكون الواحد منهما قادرا على أن يستحضر الآخر" (لانقاكر، 2018، صفحة 20)، فما الداعي لنسج جمل خاوية من المعاني والرسائل والدلالات؟ وما قيمة النحو على هذا الاعتبار مادامت وظيفة اللغة التواصل والتبليغ؟

لعل ما حدث مع عالمي سيكولوجيا اللغويات جيني سينجيلتون وإليسا نيبورت والطفل الأصم سيمون وتواصل أبويه بلغة الإشارة لأبلغ جواب، وخير دليل على دلالية النحو.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

إن الحديث عن أولوية التركيب واستقلاليته عن الدلالة في فكر تشومسكي أحدث هبّة فكرية جديدة تقوم على نقد النظرية التوليدية من هذه الزاوية، فقد ظلت مركزية التركيب ردحا من الزمن من أهم ركائز توليدية تشومسكي، وكان أن برزت ثلة من الباحثين الذين تتلمذوا على يد تشومسكي وكان لهم رأي آخر، يمثل بوادر نظرية جديدة بدأت تتجلى معالمها خاصة مع من كان لهم توجه نحوي أمثال (راي جاكوندوف ولانقاكر ولايكوف) في الاستعارات والدلالة وطالمي في الدلالة (قماز، 2021، صفحة 81)، إنها النظرية اللسانية المعرفية أو العرفنية التي احتوت كل المكونات الصوتية والدلالية والتركيبية مؤكدة على أن التركيب" في إطار فرضية التوازي مجرد مكون للغة بين المكونات الأخرى التي يسهم كل منها في إبداعية اللغة وتعقدها وطابعها المجرد" (عابي وضبعي، 2018، صفحة 130)

ومع التغيرات الحاصلة في النظرية التوليدية التحويلية وتطورها بوتيرة أسرع، فقد أعاد تشومسكي النظر في قضية المعنى والتركيب، بعد" تأكيد كل من فودور وكاتز fodor-katz سنة 1963 في بحثهما (بنية النظرية الدلالية) على إضافة مكوّن دلالي على المكوّن التركيبي" (صام وبن شيخة، 2021، صفحة 1151)، وجاء كتابه (البنى التركيبية) وفقا لتصور جديد يقر فيه بأهمية الدلالة في التركيب." وبمواصلة الأبحاث في كنه اللغة "توصل تشومسكي بالفعل إلى فكرة مؤداها أن تعلم اللغة من قبل كل طفل إنساني لا يكون ممكنا إلا بوجود استعدادات فطرية كامنة في القوى العصبية للإنسان المفكر" (طعمة، 2015، صفحة 511) في إشارة منه إلى التعالق بين اللغة والذهن وعلوم الأعصاب.

هذه الثلاثية التي وضحها عبد الرحمن طعمة في مخطط توضيحي أسماه بـ(المثلث المعرفي الذهبي)

الشكل رقم: 01 – المثلث المعرفي الذهبي

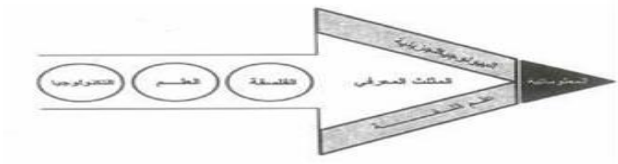

المصدر:(طعمة، 2015، صفحة 511).

فالمتمعّن في هذا المخطط يكتشف العلاقات التي تتشابك فيها اللغة مع حقول معرفية عديدة تختلف في طبيعتها، ومادتها وتتمايز بمناهجها، لكنها تتلاقح في حدود ما يمكّنها من تفسير الظاهرة اللغوية تفسيرا يستند إلى كون اللغة عملية ذهنية.

هذا وقد ضمن تشومسكي في برنامجه الأدنوي فكرة مؤداها أن تشكيل المعجم الذهني متعلق بمجريات ما يحدث في الدماغ، ومنه يعرض أطروحة وجود جهاز داخل الذهن مهمته تنحصر في بناء وتكوين المعجم الذهني، اصطلح عليه جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition Device(LAD)، إذ يمثل الجهاز مجموع البيانات اللغوية الأولية التي يكتسبها الطفل من بيئته الخارجية، وأيضا يتكون من الحالة الذهنية التي يولد عليها الطفل، وهي الحالة التي يكون فيها الذهن مفرغا من المعطيات

اللغوية، مما يجعلنا نستنتج أن المحيط والخبرة الاجتماعية لها دور بارز في تكوين المعجم الذهني ونموه لدى الأفراد. (رمضاني، 2021)

وهكذا نحا تشومسكي باللسانيات نحو إمكانية إدراجها ضمن العلوم المعرفية، و" ضرورة إدراك موضوع اللسانيات كحقيقة ذهنية بدل النظر إليها كسلوك لساني قابل للملاحظة" (الحاج، 2013، صفحة 39) وأسهمت دراسات لايكوف ولانغاكر وسبربر في المضي باللسانيات المعرفية على تعدد مستوياتها إلى عهد جديد لدراسة اللغة وفق منظور متفتح على الذهن ومن ثم على مختلف العلوم.

وكان أن انطلقت اللسانيات المعرفية كتوجّه جديد؛ يسعى أولا إلى النظر في علاقة اللغة بالمخ واكتشاف أغوار كيفية تشكّل هذه اللغة في الدماغ البشري، ومعالجتها وإخراجها بالشكل الذي يجعلها جسرا للتواصل والتبليغ والتطور، ثم علاقتها بتخصّصات عديدة على غرار فلسفة المعرفة وعلم النفس المعرفي وعلم الإناسة والذكاء الاصطناعي. هذا الأخير الذي قد يختصر ديناميكية تحوّل اللغة من مجرد المقارنة والوصف، والتفسير المادي إلى المعالجة الذهنية ومحاكاتها بالمعالجة الآلية وحوسبة اللغة، والمضي بها نحو آفاق القطاع الرقمي خدمة لها ودليلا على ضرورة مسايرة اللسانيات للمستجدات والطوارئ لأهمية اللغة في بناء الإنسان وتشكيل معتقداته، وتطوير معارفه بما يمكنه من صناعة الحضارات.

النتائج ومناقشتها

وإذ نتكئ على ما سبق من تتبّع لتطور الدرس اللساني فإننا نرصد بعض النتائج المهمة التي نجملها في النقاط الآتية:

- أسّست الدراسات اللغوية القديمة لظهور اللسانيات كعلم قائم بذاته، من منطلق ديني وكانت البداية مع المنهج المقارن الذي اشتغل على رصد مواطن التشابه والاختلاف بين اللغات واللّهجات قصد تصنيفها في فصائل على أساس التشابه.
- اتسمت اللسانيات بالمنحى التطوّري عبر العصور من حيث منهجية معالجة اللغة، وتلك سمة تدل على أنها عنصر حيوي يتأثر بمجريات الأوضاع ويؤثر فيها.
- مرّت اللسانيات بمراحل فاصلة في تاريخها، مكّنتها من أن تتبوّأ مكانة هامة في مصاف الأبحاث والدراسات العلمية على اختلاف مشاربها.
- أحدثت البنيوية مع دي سوسير نقلة نوعيّة في التناول المنهجي للدراسات اللغوية، بالانتقال من الدراسة المقارنة إلى الدراسة الوصفية، الأمر الذي ألهم اللسانيين والمهتمين بالبنيوية على وجه الخصوص إلى الخوض في دراسة اللغة من منطلق بنيوي بحلة جديدة وانبثاق أفكار جديدة.
- كل النظريات اللسانية وإن قام بعضها على نقد بعض إلا أنها تشكل مجتمعة عاملا مهما في خدمة اللغة. إذ تستلهم كل نظرية من الأخرى الأفكار والرؤى، وتتولى مهمة البحث في تأكيد

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

أو تفنيد ما جاءت به هذه النظرية أو تلك أو كانت قاصرة في جانب ما من جوانب البحث اللغوي.

- تعتبر النظرية التوليدية التحويلية منعرجا حاسما غيّر مسار الدراسات اللسانية تدريجيا من الوصف والتفسير نحو التوجه المعرفي. فكان بمثابة الشرارة الأولى لانطلاق فتيل الأبحاث اللسانية المعرفية.

***- خاتمة**

هكذا إذن ظهرت اللسانيات المعرفية كعلم رغم أنه فتي لايزال في طور النشأة؛ إلا أنّه شهد حركية في السنوات الأخيرة، مما ساهم في إخراج اللغة من حِلق الضيق والانطواء على الذات والعزلة داخل النظام اللغوي، إلى البحث في كوامن اللغة وعلاقتها بالذهن والفكر؛ ضمن نطاق الاستعمال والتداول والتواصل مما جعلها تتقاطع مع تخصصات معرفية عديدة كعلم النفس المعرفي والفلسفة، والأنثروبولوجيا واللسانيات العصبية والذكاء الاصطناعي، كل ذلك في إطار تشاركي تفاعلي ينفتح على عوالم وآفاق رحبة نأمل أن تحقق نتائج باهرة في المستقبل.

**

***- المصادروالمراجع:**

الكتب

أحمد المتوكل. (2013). اللسانيات الوظيفية-دراسة في التنميط والتطور. بيروت، الجزائر: منشورات الاختلاف، دار الأمان.

صابر الحباشة. (2008). اللغة والمعرفة رؤية جديدة . سوريا: دار صفحات للدراسات والنشر.

فاضل سامر الأسدي. (2018). البنوية وما بعدها النشأة والتقبل. الأردن: الدار المنهجية للنشر والتوزيع.

محمد عزمي عيال سلمان. (2021). اللسانيات التطورية. الجزائر: دار ومضة.

مختار زواوي. (ديسمبر, 2017). دوسزسير من جديد. الجزائر: ابن النديم.

مصطفى غلفان، وآخرون. (2010). اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي (ط1). الأردن: عالم الكتب الحديث.

الكتب المترجمة إلى اللغة العربية

جين اتشسن. (2016). اللسانيات مقدمة إلى المقدمات. (عبد الكريم محمد جبل، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

روجيه قارودي. (1997). البنوية فلسفة موت الإنسان. (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت: دار الطليعة.

رونالد لانقاكر. (2018). مدخل في النحو العرفني .(الأزهر الزناد، المترجمون) سيناترا: معهد تونس للترجمة.

ستيفن بنكر. (2001). الغريزة اللغوية كيف يخلق العقل اللغة. (الطيب لحصيني، المترجمون) المملكة العربية السعودية: صفحة سبعة للنشر والتوزيع.

جوناثان كيلر. (2000). فردينانند دي سوسير، أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات (عز الدين حسن، المترجمون) القاهرة: المكتبة الأكاديمية.

محي الدين محسب. (2008). انفتاح النسق اللساني دراسة في التداخل الاختصاصي. القاهرة. دار الكتاب الجديد المتحدة

نعوم تشومسكي. (2009). آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل.(عدنان حسن، المترجمون) سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

المقالات

أنفال ولد بسطامي. (2016). حوار اللغة والعقل في فلسفة تشومسكي (المجلد23)مجلة دراسات وأبحاث،

جمبلة روقاب. (2021). الأسس العرفنية في الفكر اللساني لنعوم تشومسكي.، (المجلد01 .العدد01)العدوي للسانيات.

جميلة قماز. (2021). أهم مباحث اللسانيات العرفنية.(المجلد01 العدد01)العدوي للسانيات العرفنية وتعليمية اللغات.

ذهبية حمو الحاج. (2013). مقدمة في اللسانيات المعرفية . الخطاب دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب (العدد 14) جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

صام عبد القادر. (2022). الاستمداد المعرفي للأنموذج العرفاني في اللسانيات العربية. غليزان.

عاشور المنصف، وسرور اللحياني. (2014). اللسانيات وإعادة البناء. الندوة العلمية الثالثة للسانيات. تونس: كلية الاداب والفنون والإنسانيات.

عبد الرحمن محمد طعمة. (2015). التطور اللغوي من منظور اللسانيات العصبية. رسالة المشرق، المجلد 15.

عبد السلام شقروش. (2021). اللسانيات التوليدية التحويلية والصورنة. الممارسات اللغوية، المجلد 12.

عبد السلام عابي، والنذير ضبعي . (2018). من اللسانيات التوليدية إلى اللسانيات العرفانية.تحولات المباحث والمفاهيم. اللسانيات، المجلد24.

عبد القادر صام، ونصيرة بن شيخة. (2021). المقولات التأصيلية للسانيات العرفانية وطبيعة التلقي العربي . علوم اللغة العربية وآدابها.

عماد الدين بوقرة. (2021). أنموذج التظافر العرفني اللساني للوصول إلى حقيقة اللغة. العدوي للسانيات.

فريدة رمضاني. (2021). بناء الأفضية الذهنية في المعجم الذهني من النحو التوليدي إلى النحو العرفني. (جامعة علي لونيسي) مجلة الأنساق اللغوية.

محمد ثناء الله الندوي. (2014). التفاعل اللغوي بين السنسكريتية والعربية. (جامعة أدرار، المحرر) مجلة رفوف.

ولد بسطامي أنفال. (2016). حوار اللغة والعقل في فلسفة تشومسكي . مجلة دراسات وأبحاث.

حفصة فقاض. (2022). الإدراك في اللسانيات الحديثة تصور تشومسكي- أنموذجا. موقع إلكتروني. الرابط:https://aleph.edinum.org/3779